من الأعمـــاق

للاستاذ ســـيد قطب

— ١ —

هأنذا هارب من الدار ، يا توت[1] ، لأبعد عن مواقع خطاك ، وأهرب من رؤى مصرعك ! ولكن كيف أهرب من نفسي ؟ الصور ، والخيالات ، والشاعر المكنونة ، والرؤى الحية ...

أولئك أعدائي ... وهم معي بين جنبي يا توت — وأنت معنا !

رصاصة صماء ، ويد بلا قلب ... وتنطفىء الشعلة ، ويطوى سفر ، وينطوي عالم ... وبأيسر من هذا تتم تلك النقلة التي تدير الرءوس هولا . والأحياء مع ذلك تعيش ، وترجو ، وتأمل ... ألا ما أقسى السخرية البلهاء !

كلب !

ما أيسر ما تلوكها الألسن ، وما أهون ما تتلقاها المدارك ، وما أقل ما تحفل بها الشاعر ! ولكن حين يستحيل هذا اللفظ إلى عشرات من الصور والذكريات ، وعشرات من الرؤى والطيوف ، وعشرات من الاهتمامات الوجدانية والمشاعر الحية . هنا يستحيل كل حرف فيها وكل صوت من مقاطعها ، إلى أفاعي مسمومة تنهش القلب ، وتجرح الضمير ، وتقتات من دماء الأحياء

دماء! ويحي! ما الذي دس هذه اللفظة في تعبيري الآن؟ دماؤك أنت — يا توت — تلك التي خضبتك وعفرتك ! ويحي! لم أنكأ نفسي هكذا ، وأتكىء على جرحي بقسوة؟ إنها صورتك الأخيرة يا توت لا تبرح تواجه خيالي ، حين يفري جوانحي ألم ضار مسموم

(١) « توت » كلب لطيف نظيف ذكي . قتلته الحكومة وسرقت طوقه ، بيد أحد « الشاويشية » الأجلاف الذين تطلقهم يصيدون كلاب الناس بالرصاص . كما تطلقهم أحيانا يصيدون شباب الوادي وكل ألف من هؤلاء الأجلاف لا يحمل نفوسهم من « الشعور » شر ما كانت تحمله « نفس » « توت » المسكين . وما كان يمكن أن تخطىء عين خطفه كلبا شارداً وقد قتل على باب الدار وسلب قاتله طوقه إبداري جريمته . ومضى ذلك الوحش الجاف ، وترك قلوبنا تدمى .. وقد كان المتبع أن تجمع الكلاب في عربة ليتعرف أصحابها عليها ولم تكن هذه الطريقة الوحشية المزرية بالإنسانية تتبع فماذا جرى ؟

وعلى الحكومة وعلى الفرنسيين وعلى الدنيا كلها ، فبدأ بالشيخ فقتله ، وأراد أن يمد يده إلى الفرنسيين فإذا هم يمدون إليه أيديهم يعرضون عليه المال والعتاد والألوهية في الجبل على أن يكون عبداً لهم ...

فصار المهدي رباً[1] ...

***

وكر الفلم فرأى هذه الليلة التي أعلن فيها ربوبية ماثلة أمامه : هذا هو القائد الفرنسي ، يزوره متذللا خاشعاً ويقول لقومه : (هذا هو ربنا وربكم) ، ثم يطلب إليه أن يطلع الشمس في نصف الليل ، فيأخذ الرب الجديد مصباحا في يده فيلوح به ، فيرى الجبليون الشمس ساطعة على الجبل الغربي ، أطلعها الجنود الفرنسيون بالأنوار الكاشفة ، و (البطاريات) القوية ، لما رأوا المصباح يتحرك .

وتتتابع الصور ، أمام عينيه ، فيرى (الرب) يتخذ أنبياء وملائكة ، ويتزوج النساء بالعشرات ويأخذ ما يطيب له من الأراضي ، ومن يستحلي من النهاب ، ويقتل ويضرب ويحبس ، حتى إذا انتهت الحرب ، وأحس الفرنسيون أن أجلهم قد دنا ، أقبلوا عليه يحالفونه على أن يمدوه بالمال والسلاح ، ويجعلوه ملكا على الشام كله كما جعلوه ربا على الجبل ، وتمت المحالفة ، وصار ملك الشعب الحيدري الغساني (؟!) يسن له القوانين ، ويشرع له الشرائع ، ويجبي الضرائب ، ويولي الولاة ... ويفعل ما يشاء لا يسأل عما يفعل !

وتمر به صور أخرى من حياته ، فيرى الوطنيين يقبلون عليه يسألونه أن يقبل عليهم ، وأن ينفض يده من الفرنسيين ، فيأبى ويمتنع . أيدع أحلافه الأقوياء لقوم لا حول لهم ولا قوة ، أيعود واحداً من هذه الأمة ضائعاً وقد صيره الفرنسيون رباً ؟ أيرد ما اغتصب من الأراضي ويحمل وزر ما اجترم من الجرائم ؟

كلا . إنه لن يصافح اليد الوطنية ، إن الفرنسيين لا يمكن أن يخرجوا من الشام أبداً ...

(لها بقية) علي الطنطاوي

(١) ولم ينفرد بذلك الفرنسيون ، فالانكليز أيضا يستطيعون أن يجعلوا (المهدي) ربا ، ليكون لهم عبداً

لقد تماسكت : وتماسكت ، وحاولت أن أغلف المسألة كلها بغلاف من عدم المبالاة . ولكن حين حملتك -- يا توت — بين يدى جثة جريحة دامية ، لأواريك القبر الخبيء فى جوف الثرى . خذلتنى قواى كلها . وبدا لى التماسك سخافة كبرى !

ونمت هناك — يا توت — فى مقرك الأبدى الذى سويته لك بيدى الراعشة ... ولكن أنى لى أن أطيق تلك الصورة الواقعة المستحيلة : إن عينى لن تعود فتراك أبدا . إن أذنى لن تعود فتسمعك أبدا . إن هذا الجسد الهامد لن يعود فيتحرك أبدا ... إن شيئا مما كان كله لن يكون أبدا ... مستحيل مستحيل ذلك الواقع الذى لن يزول !

« * »

توت . توت . توت !

سأقولها ، وأقولها ، وأقولها . فلا تجيب أيضا . وسأعود فلا أجدك فى الحديقة ، ولا فى الشرفة ، ولا فى الردهة ، ولا فى حجرتى ، ولا فى المطبخ ، ولا فى المكتب ، ولا فى مأواك ، ولا فى مكان ما على ظهر هذه الأرض الدوارة ... ؟

وحينما يحين موعد انطلاقك من مأواك فى الصباح ، وموعد غدائك فى الظهر ، وموعد لعبك فى الغروب ، وموعد مبيتك فى المساء ، لن تنبح ، ولن توصوص بعينيك ، ولن تبصبص بذنبك ، ولن تتواثب على أقدامنا وأحضاننا ، ولن تروم احتجاجا ولن ترق شكرانا ، ولن « تصوصو » شكوى . ولن يكون شيء من ذلك أبدا ... ؟

وحين أشتاق إليك كالطفل الحبيب ، وحين أذهب لأطل عليك فى مخدعك قبل أن أمضى صباحا . وحين أتوقع أن تطلع لى من حيث لا أعلم عند عودتى ظهراً وحين أجلس للطعام فأسرع لأخلص لك العظم المحبوب . وحين أخشى أن تعبث بكتبى وأوراقى التى تحبها حبا جماً ... عند ذلك تكون أنت — يا توت — هنالك فى تلك الحفرة الصغيرة المنعزلة التى سويتها لك بيدى !

وكرتك النطاطة ستظل هامدة على الأرض ، ليس فيها من حراك . وصحفة طعامك ، وآنية شرابك ، وبيتك الخشبى الصغير كل أولئك لن يعود أحد يسأل : أهى مليئة أم خواء ؟ !

ويدخل الليل ، ويلفنا الظلام ، وتغمرنا الوحشة ... وبين فترة وفترة يشق السكون « نباح » هنا أو هناك ، فأنسى أنك هناك وأتلفت بنفسى المتطلعة إلى همهمتك الحبيبة على أطراف ثوبى أو قدمى بأنيابك الصغار ؟

ويصبح الصباح ، ويمتع الضحى ، ويميل الأصيل ، ويدخل الليل . وتكر الأيام وأنت أيضا هناك . ساكن فى ذلك المأوى القريب ، تفصلنى عنك الآباد ؟

يا دنيا !

لم كانت هذه السخرية الكبرى سخرية الحياة ... للفناء؟ !

— ٢ —

لن أصدق ... لن أصدق !

لقد مضى أمس الأول . ثم مضى أمس . ونحن هؤلاء اليوم . فلم لا تجيء يا توت ؟

إنك قد مُتّ ! أعرف ذلك . ولكن ! لم لا تجيء ؟ !

اليوم هو الجمعة . وأنا هنا فى الدار — يا توت — ألا تعلم ؟

لقد صحوت فى النوم ، فمالك لم تجيء لتوقظنى بهمهمتك ؟ مالك لا تحاول القفز إلى سريرى ، مالك لا تروم محتجا لأننى لم أستمع إلى ندائك ؟ مالك لا تملأ الحجرة نباحا وقد يئست من إصغائى إليك ، فإذا تحركت حركة واحدة عدت ترق فرحا وابتهاجا بصوتك الودود الجميل ؟

أم لعلك جئت وهممت واحتججت ويئست ، ثم انصرفت — لتعود — إلى المطبخ ، لتتناول نصيبك اليومى من العظام وقد أحضرته لك فى الميعاد صديقتك — رقية — التى تحبها وتحبك ، وتلاعبها وتلاعبك ، وتملأ أوقات فراغها وأوقات خدمتها كذلك مرحا ووثبا وصياحا وزياطا وحيوية ، كما تملأ حياة الدار جميعا !

لا . لست فى المطبخ . فهاهى ذى شقيقتى هناك وحيدة ، ساهمة ، كئيبة ، مفردة ، موحشة ... هى لا تحاول اليوم أن تحسم الخلافات التى تقع بينك وبين « سوسو » فى توزيع الجلد والعظام وزوائد اللحوم . أنت لا ترفع صوتك احتجاجا لأن زميلك قد عدا على نصيبك ، وهو لا يعوء صارخا لأنك عدوت على نصيبه . إنه هادىء ساكن . أم لعله حزين !

ألا تكون فى الحجرة الأخرى — يا توت — تمازح صديقتك الأخرى شقيقتى الصغيرة ؟ تشد منها كرة الخيط الدلاة وتختفى بها تحت السرير فلا تحس بك ولا بها إلا أن تشد خيطها فلا ينشد فتعلن سخطها عليك ، وتحذيرها إياك . حتى إذا نظرت إلى عينيك الجميلتين ، ورأت فيهما كل معانى الشيطنة

والبراءة ، داعبتك باللفظ الذى تعرف ، وبالصوت الذى تفهم ، وبالإيماءة التى تجيب ؟

هأنذا يا توت فى حجرة المكتب ... يا توت ! تعال يا توت ! ألا تجيء أيها الشيطان الصغير ؟ تعال فالشمس التى تحبها تملأ الحجرة ، والورق الذى تهم به ينتظرك للشد والتمزيق .

أوه ! رحمتك يا الله !

إن آثار فنجانة القهوة التى سكبت من يدى على المكتب ، وأنا أضطرب للنبأ الأليم ، نبأ مصرعك الوحشى الغادر ، لا تزال . لم يزلها أحد منذ ثلاثة أيام ! وهل بقيت فى أحد هنا بقية يا توت ؟

الفراغ ! الفراغ !

ذلك الخواء الموحش العميق المترامى الأطراف ، ذلك المخلوق الكئيب الهائل .

ذلك الذى تراه على امتداد البصر وآماد الآفاق .

والصور ، والرؤى ، والأطياف ، والأشباح !

تلك الحيات الكامنة فى الضمير ، تنهش القلب ويضم عليها جوانحه ، وتسمم الحياة والحياة بدونها محال .

والذكريات !

أولئك اللواتى يئن كلما سكن الحس ، وساد الصمت . ولفنا الظلام : ظلام النفس أو ظلام الأرجاء

وإنا لنهرب إلى أنفسنا — يا توت — فنلقاك هناك . ونهرب من أنفسنا فنلقاك هناك . ونهرب إلى الناس فنحدثهم عنك ، وحيثما انجر حديث قفزت إليه من بعيد ، واندست ذكراك فى مجراه .

يا توت لم اعترضت طريقنا . مادمت لا تنوى إلا عمر الأزهار ؟

العذاب ! العذاب فى هذه الحياة !

— ٣ —

أبداً لست هنا يا توت . ولو كنت هنا ونحن عائدون هكذا إلى الدار جميعاً ، لما وسعتك الحديقة كلها من الفرح ، ولملأتها جريا ووثبا ومراحا ، ولجئتنا عن أيماننا وعن شمائلنا ، ولأخذت علينا طريقنا وراء وقداما ، ولتواثبت على صدورنا وأقدامنا كالبرق الخاطف أو القذيفة المندفعة ، ولملأت الدار حركة وضجيجا نتابع بهما حركتك وضجيجك ، ونهدىء بهما هذه الشعلة المتوقدة فى جوارحك . ولكنك لست هنا يا توت .

فلنخرج صامتين لا نتلفت وراءنا لترجعك إلى الدار فلا تتبعنا . ولندخل صامتين يجلل الأسى وجوهنا ، وتغشى الكآبة نفوسنا ، ولنتخاطب فيما بيننا همسا من الكمد ، ولتتجاذب عيوننا وقلوبنا بالهم الذى يغمرها جميعا .

أجل يا توت . ولقد تمت على شفاهنا ألفاظ قاموس كامل كان لك أنت وحدك ألفاظ التدليل والتنبيه والزجر والتخويف والنداء والاسترضاء . فقد انطوى ذلك كله ، وعادت ذكراه لذعا أوقدتنا لذعة الجمر كلما هجست فى الضمير .

وودت يا توت — لو أنساك ! فقد كدت أفقد كل مايعرف عنى من اتزان وتماسك ؛ وتفزعت أعصابى فلست أنام ، وفى جوانحى ذلك اللذع الذى لم يعد يطاق ... ولكن لا أريد أن أنساك — يا توت — لا أريد أن أفقدك كلك . فعزيز على نفسى أن تفرغ من كل شىء حتى من لذعة ذكراك !

— ٤ —

كانا هنا على المائدة — يا توت — فأين أنت ؟

لست إلى يمينى هنا باسطا يديك على الأرض فى انتظار نصيبك فى النهاية ، وعيناك تلتمعان بكل ما تريد أن تقول !

عيناك الذكيتان المعبرتان ، لقد كانت بيننا وبينهما لغة مفهومة ؛ كما كان بينك وبين أعيننا تلك اللغة المفهومة بلا أصوات !

ولكنهما أطبقتا — يا توت — وانطفأت فيهما تلك الشعلة من الذكاء الحاد ، والحس المرهف ، والإخلاص الودود .

أطبقتا . أطبقتا إلى الأبد . وهذه هى قسوة الموت ... العدم . العدم المطلق . المطلق إلى غير حد ... يا للقساوة الصماء !

وأسرع فى ازدراد طعامى — يا توت — لا لأخلص لك نصيبك المعلوم ، ولكن لأهرب من الخيال المفزع .

لا . لا . لاطاقة لى بهذا العذاب الدائم المتكرر فى كل موضع قدم فى هذه الدار .

فى كل لفتة ذكرى ، وفى كل خطوة صورة ، وفى كل خطوة عذاب . عذاب قاس ممزق لذاع

ولكننى أهرب إلى الخارج ، فتصاحبنى فى كل موضع قدم ، وفى كل خطرة فكر ، وفى كل لفتة بال .

ياتوت يا توت . لم — يا بنى ! — ألممت بنا فى الطريق؟!

يا رب . يا رب . رحمتك يا الله !

سيد قطب